العدد: 01 المجلد: 09 ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

# القراءة الفنية بين ثنايا الجمال وتغيّر خارطة الذائقة من خلال تجربة الفنان التونسي سامي بن عامر

**فاطمة دمق**
**أستاذ مساعد بالمعهد العالي للفنون والحرف**
**بصفاقس**

يعد التلقي عملية إبداعية جمالية وفق منهج تأويلي وقراءة تأويلية تمتد وتتغير من متلق لآخر لأجل بث واستخراج المكونات والمسكوت عنه بين ثنايا العمل الإبداعي، فالتلقي هو حجر الأساس في برهانية الحجة الجمالية وهو الذي يمنح العمل ديمومته ويجدد ماء حياته مع كل قراءة. وكلما اقترب العمل الفني بالمجتمع المحلي وكلما التصقت ذات الفنان بذات المتلقي كلما نما الحوار المتناغم بين الذات المبدعة والذات القارئة فتنبعث إشعاعات ورؤى وأشكال وتكوينات لتحمل مضامن فلسفية وفكرية كبرى وتزيد اللحمة الحميمية بين الفنان والمتلقي .فنقطة الإبداع الحقيقية هي تلك الحالة المعلقة بين الأرض والسماء رافضة قانون الجاذبية لكي لا تفقد سحر الاكتشاف في رحلة مشوقة بين الحلم والواقع، بين الماضي والحاضر، رحلة لا تنفصل عن الأرض ولا تستقر فيها فهي دائمة السفر تنفذ إلى كل الجدران وتتعدى الحواجز لتحلّ لغز ما خلفها، تنشر النور وترصد لحظات المكاشفة، تلتصق بالذاكرة البصرية حتى لا تحيد عن مشروعها السوسيولوجي وحتى تنتقل من الحسّ المحلي إلى الحس الكوني والإنساني عموما.

هذا الرنين المحلي والكوني يذكرنا بالمكان السّعيد الذي يشير به الفيلسوف الفرنسي "غاستونباشلار" صاحب كتاب "شاعرية المكان" الذي يحاول من خلاله أن يستخرج الشاعرية الأصيلة التي تشدّ الإنسان بالمكان وبانتماءاته والتي تربط ماضيه بحاضره حيث يمكن للصورة التشكيلية أن توحّد الذوات وتنتقل إلى الوعي الجمعي كنتاج مباشر للقلب والروح والوجود الإنساني عامة.

وقد التمسنا في أعمال الفنان التشكيلي التونسي "سامي بن عامر" في معرضه "ذاكرة تتجدد" تلاوين وتشكيلات تريد أن تلمس الأعماق قبل أن تحرك السطح لتبني قبل كل شيء جسر عبور بين المتلقي وبين الأثر حتى توقظ ذكريات الماضي من خلال الأشكال والألوان التي تتوحد لتعبر عن سيمفونية الوجود وعن لوغوس إنساني يؤكد في حدّ ذاته مدى حاجة الإنسان للاستقرار وللارتباط بالتربة فيصبح المتلقي شبح الفنان وتتوحد متعة الإبداع مع متعة التلقي.هذه التجربة إنما تتنفس هواء المجتمع وتبرهن على فاعليتها الحياتية خلافا عن كونها سبيلا للتزويق والتزيين، تفتح نوعا من المناقشة التي تنبه المتلقي وتمنعه من الفرجة النائمة ، فالفنان يتجاوز غاياته الجمالية إلى أبعد من ذلك لتصبح الأعمال الفنية ثقافية تعلّمية وفكرية.

كل هذا وغيره لامسناه في معرضه "ذاكرة تتجدد" في برج المنيف بمدينة صفاقس حيث برهن الفنان على قدرته على ربط عالم الفن بالعالم الخارجي وبالذائقة الفنية المتعطشة لاستحضار الغائب والباحثة عن فضاءات عرض جديدة تتجاوز قاعات العرض نحو أماكن أكثر انفتاحا في ظل المتغيرات والرؤى الفنية السائدة .فكيف يستقبل المتلقي أعمال سامي بن عامر، وكيف يمكن لهذه الأعمال أن تغازل الجمهور حيث تنظم رؤى التلقي حالها وتنشط النظرية الظاهراتية التي بشّر بها هوسرل والتي تقول أيضا بقصدية المبدع؟ حيث يقوم المتلقي بمجهود التأويل خاصة وأن أعمال الفنان تستبعد عنها كل محاكاة أو تقليد للأشكال الخارجية بل هي تهدف إلى الغوص في روح الجماعة واستنطاق القديم وترميم الماضي الدفين في الذاكرة.

العدد: 01 المجلد: 09 ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

كانت تجربة الفنان سامي بن عامر في برج منيف بمثابة المغامرة الفنية ، وبرج منيف هو من أحد أقدم الأبراج التاريخية بالمدينة يحوله الفنان اليوم إلى فضاء تشكيلي يضم

مختلف الوسائط الفنية من لوحات تشكيلية وصور فوتوغرافية وتنصيبات ، أعمال تستنشق جمالها من عبق الماضي متعطرة بعطر التاريخ زاد من حضورها شريط الفيديو الذي بقدر ماهو توثيق للتجربة فهو أيضا بث لروح الماضي في ذلك المكان، إنها "**صور مرئية وصوتية موسيقية ونصية تتفاعل فيما بينها وتجتمع في فضاء هذا الماجل المغلق والمفضي إلى بريق ماء مستقر،لتحيلنا إلى معنى الحميمي والرحم والأولي،أيإلى فكرة الانتماء**". حسب تصريح سامي بن عامر.

لقد أراد الفنان أن ينفث الغبار عن الأشياء القديمة المتناثرة هنا وهناك في البرج. في تلك اللحظة المكثفة بالذكريات تزدوج الصورة من الماضي إلى الحاضر، حيث يحمل الفنان كل أدواته الفنية وقد سرت فيه رعشة الرغبة الجامحة التي سيحول من خلالها هذا البرج الضائع بين ثنايا النسيان إلى العشّ الهادئ الذي يوفر الأمن والهدوء ويبعث الذكرى ويزود المتلقي بالحس العربي الإنساني من الناحية الفلسفية والإبداعية والوجودية عموما. هناك إذن علاقة مؤكدة قد نشأت بين الفنان وبين المتلقي نظرا للارتباط الوثيق بينهما على المستوى الجغرافي وعلى المستوى الوجداني في تبادل جمالي بين القارئ والمقروء أو ما سمّاه الفيلسوف "ياوس" (HansRobert Jauss) بجمالية التلقي (la réception esthétique) فالعمل الفني مرتبط بسياقه الثقافي وآفاقه التاريخية حيث يصبح التلقي حدثا غير منفصل عن الكينونة البشرية فهو يجري في الزمان ويتحرك في نظام تاريخي وفكري محدد وهو ما يسمح بالتفكير بشأن الوظيفة الاجتماعية للفن عموما.

وينطلق الفنان سامي بن عامر من الإرث التاريخي لأجل إعادة تأطير مفردات الحياة القديمة ببرج منيف حتى يتمكن من تحويل تفاصيل الحياة البسيطة إلى رموز سحرية تخيّلية قام من خلال ذلك بجهد كبير لتطويع الشيمات القديمة وعصرنة مضامينها "**مثل المائدة ذات جلد الخروف والغربال أوالبنديرأو القبقاب أو عصى البازين**" إنها مجموعة من المواد والأدوات الصمّاء قدح فيها الفنان شرارات وعيه عبر توظيف جمالي يُنوّء بروح تعبيرية خالصة تحولها من مجرد مواد بلهاء هجينة إلى تشخيصات وتشيئات حيّة تمدّ أواصر التلاقي والامتدادات التي توجبها وطأة الأزمنة التي كان المتلقي قد يئس من عودتها من جديد وكأنها حلم

أو فنطازيا من قصص ألف ليلة وليلة. فكيف استطاع الفنان تطويع المواد وتدريب الخامات وتوظيف الألوان لتعزف سيمفونية الحياة العائدة من التخلي والضياع والنسيان؟.

هل يبدو لجوء الفنان للتراث الروحي والتاريخي نوعا من الهروب من المحيط المادي أم هو خيار ذهني وثقافي استولى على كيان الفنان واستطاع أن يبلوره بأسلوب وتقنية معينة لينتج خطابا صوريا ذا مدلول معين؟ هذه الأسئلة التي واجهتنا ونحن نتأمل أعمال الفنان سامي بن عامر في معرضه ذاكرة تتجدد حيث حققت الأعمال فعلها البصري وافتعلت حولها جملة من التكوينات الشكلية ضمن حقل دلالي سيميائي. تلك التفاصيل التي تتداخل في حساسية مشوبة بالوجدانية وبالبحث عن أهدافها، هل هي روحية صارمة، أم هو لعب على شفرات وأيقونات تخص التراث والماضي العريق وتدعو إلى التحليق وراء هلامية الأرواح والقبض على تمثيلها صوريا وتقنيا؟

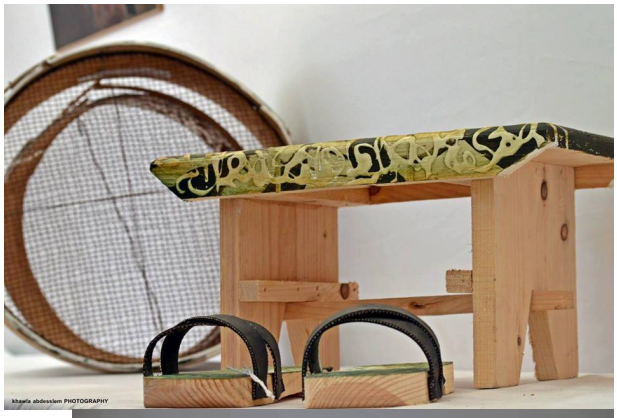

العدد: 01 المجلد: 09 ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

لقد حضر الفنان بعمق في الذاكرة واستحضر الغائب، فالتراث هو الماضي الذي لا يمضي هو لباس ومعمار وأدوات وتقاليد...تعشش فينا بكل التراث الجمالي الأمازيغي والإفريقي والعربي والإسلامي فحتى وإن استجابت الأعمال الفنية لمفاهيم الفن الحديث من تجريدي وتعبيري ورمزي وغيرها فهي بمثابة الذاكرة البصرية التي تتآلف بين الماضي والحاضر لإثارة المخزون الجمالي.

الفن الحديث ليس له أيديولوجية بل هو يستمد وجوده في الأعمال من الجذور في محاولة من الاقتراب من عالم الإشارات والرموز والأشكال والألوان القريبة من النقوش التقليدية وفنون الحفر والنقش والنحت العربية المشرقية وفنون الخزف والنسيج والوشم والفسيفساء وغيرها...

ويصرح الفنان سامي بن عامر في هذا السياق "**أنا أراكم أشكالي الخطية من كتابات مسمارية وأحافير وقرافيزمات وخامات عجينية، أتربة ومواد من الطبيعة والتي تصنع نتوءات على مساحة اللوحة لأعود إلى النبش فيها من جديد فأعري بعضها وأستحضر كما يستحضر الأركيولوجي ما خفي عن السطح**".

لقد امتاز أسلوب الفنان سامي بن عامر بتبسيط مفرداته التشكيلية والاعتماد أحيانا على منوكرامات متنوعة في الفضاء بالانتقال بالمواد والألوان من سطح لآخر ومن الكتلة إلى الفراغ حتى تبدو الخطوط في حركتها الداخلية المرنة رشيقة جذابة تجعل المتلقي يتبع مسارها واندفاعاتها ويلاحق اتجاهاتها ليمسك بالخيط الرابط بين وجودها المادي ووجودها الروحي، هذه الأشكال والخطوط التي وضعها الفنان بقصدية والتي تظهر في شكل رموز مقطعية وأبجدية حروفية مألوفة فيها تأثيرات حضارية متنوعة.

لقد لقد طاف الفنان في الماضي الملهم بحثا عن نماذجه المحببة لكتابة سطور جديدة من تاريخ يريد أن يغيبمن "**جدران مهترئة وأرضية مغطاة غبارا أو مكوناتهاالمتعلقة بالأغراض القديمة الحاضرة فيه كالمحراث والمحشةوالقرداش والحصير وقفل الدواب والماجل والكليم**" حسب تعبير الفنان، وكان يتودد إلى الحاضر بكل تقنياته وتكنولوجياته بأن يلغي حضوره مؤقتا ليحيله إلى الماضي برموزه وأساطيره وحكاياه الودودة هي جزء لا يتجزأ من ترسبات الطفولة المملوء بالرموز الروحية .فيعود مجددا إلى أحلامه الملقاة في النسيان.

إنها اللحظة الأبدية التي أرادها الفنان لتجمعه بجغرافيته ومجتمعه ولتقلّص الهوة بين الفنان وبين المتلقي في لحظة تتكثف فيها الذوات وتتوحد. الفنان سامي بن عامر استطاع من خلال أعماله أن يمسك الزمن ليقتنص منه الأشكال والرموز والخامات والصور لإعادة بناء

الذاكرة من جديد ليعطي للذائقة الفنية نفسا جديدا خارج قاعات العرض،أعمال تنفتح على الآخر بوعي ونضج، أعمال تنوعت فيها الأنساق والمحامل قام الفنان من خلالها باستثمار اللاّمألوف فسكنت في روح المتلقي وزادته ألفة وانسجاما ومتعة بصرية.

لقد استطاع الفنان أن يؤطر التشويق للمنتظر والقديم المنسي فنجح في خلق عالم يحس بالمشاهد، فبقدر ما يكون الفن ذاتيا بالمعنى الإنساني للكلمة وليس بمعناها النرجسي،

بقدر ما يحقق حضوره الإبداعي في معادلة متوازنة بين المطلق والنسبي، إنه لا يريد أن يستنسخ النماذج السابقة بقدر ما يريد أن يعتمد على قوة الرمز كأساس فني خلاّق قادر على التعبير العميق عبر تجديدات المعاصرة وقادر على اسكتشاف السحر الإنساني .

سامي بن عامر يقرأ الواقع بأصابع روحه ويشعل مصابيحه ليسري نورها بين أوردة الجمال وكأنه يزف أعماله في عرس وجودي أصيل، يركب فوق حصان التراث ويشدّ السفر نحو عوالم الذات حيث تبدو الأشياء متناثرة متروكة فيؤسس لها مملكتها لابسة سيمياء الأرض معانقة فراشات الحلم المشبعة بفلسفة خاصة، تضم الإنسان والإنسانية فتنهمر بسيولها المتنوعة لتقلق هدوء المتلقي فيلاحقها مسرعا مغازلا شموخها الحضاري العريق.

أنهي هذا المقال بالتنويه حول هذا النص الذي وسمته بشريط فيديو تضمن تركيب لصور مقتطفة من التظاهرة كانت محاولة شخصية في رؤية لتجربة الفنان سامي بن عامر "ذاكرة تتجدد" تجدونه على اليوتيوب.